

الحارث بن مضاض

والحارث بن مضاض هذا هو آخر ملوك جرهم المتوجين ولضياعه هكذا قصة يرويها كتاب التيجان على لسانه وأرويها لك بقليل من الاختصار والتصرف ، يقول موجهها حديثه لدليله الى مكة اياد بن نزار :

كنت ملك مكة وما والاها من الحجاز والتهائم الى هجر والأنعمين وحضر العالمين الى مدائن ثمود ، وكان الملك قبلى أخى عمرو بن مضاض ، وكنا أهل تيجان ، وكنا نعلق التاج يوما على رؤوسنا ويوما على الرتاج بالببيت العتيق . . وأتى رجل من بنى اسرائيل ، بدر وياقوت ، تاجرا الى مكة . . واشترى أخى ما أتى به من الدر والياقوت . . ونقض أخى التاج وزاد فيه العتيان والدر والياقوت وجعله كالمجن . . وغيب الاسرائيلى أحسن ما كان معه من الدر الياقوت ثم عرضه على بعض الناس . . فأتى خبر ذلك الى الملك فأرسل الى الاسرائيلى وأتى به (وقال له) لم غيبت عنى عتيق ما معك وبعث لى نفايته ، ألم أبلغك أمك فى درك وياقوتك ؟ (قال) نعم أيها الملك . . (قال) فما حملك على ما فعلت ؟ (قال له) الاسرائيلى : هو مالى أيها الملك ، أبيع منه ما أحببت وأحبس منه ما أحببت . . فغضب عليه

الملك وأمر به فنزع عنه ما معه من در وياقوت، وكان يسيرا . .
ورصد الاسرائيلي الرجل الذى يحمل التاج الى البيت يوما ليعلقه
على رتاج البيت العتيق ، فعمد اليه الاسرائيلي فقتله وأخذ التاج ،
وركب نجيبا وهرب . . وأصبح الناس فلم يدروا من ذهب بالتاج ،
واشتبه عليهم الأمر حتى أتى الخبر اليقين من بيت المقدس . .
فأرسل الملك عمرو الى بنى اسرائيل يأمر ملكهم فاران بن يعقوب
برد التاج ، ويأخذ منه كفاف حقه ويطل له الدم الذى أصاب ،
واعتراف الملك بالزلة وندمه عليها . . فأبى عليه فاران ، فأرسل
اليه عمرو أن التاج يعلق على البيت العتيق بمكة ، ولم نجعل
في ذلك التاج غصبا قط ولا غلولا . . فأرسل اليه فاران انه يعلقه
على بيت المقدس ، فبعث اليه عمرو يقول ان الله هو الغنى ،
فهل تسلب بيتا لبيت ؟ فقال فاران نحن اهل كتاب اعلم بالله منك .
فأرسل اليه عمرو يقول ، أعلم الناس بالله من أطاعه ولم يعصه ،
ولم أر بيتا يسلب بيتا ولكن ملكا يسلب ملكا .

قال الجرهمى : فخرجنا اليهم فى مائتى ألف ، جرهم فى مائة
ألف ، وعملاق فى ستة ألف ، ونصرنا الأحوض بن عمرو العبددوى فى
خمسين ألفا . . واستنصر فاران بن يعقوب بقومه من الروم .
وكان صاحب أمر الروم شنيف بن هرقل ، فنصره فى مائة ألف من
الروم ، وخرج بنو اسرائيل فى مائة ألف ، ونصرهم أهل الشام
فى مائة ألف .

قال الجرهمى : والتقى الجمعان عند هذا الجبل . . فنادى
أخى عمرو على بنى اسرائيل وطلب منهم أن يبرز له ملكهم

فيتبارزا فأيهما قتل صاحبه كان له الأمر على ما يملك . . وبرز
اليه شنيف بن هرقل فاختلفت بينهما طعنتان ، فطعنه عمرو فقتله
. . ثم أرسل عمرو الى فاران أن أعطنى ما تعاهدت عليه مع
شنيف ، فأرسل اليه فاران يقول أعطيكه بمكة من أموال أهلها اذا
غلبت عليها . . فأرسل اليه عمرو يقول ما أشبه اول ظلمك
بآخره ، وقد أوعدتك القتال غدا .

قال الجرهمى : وفى الغد نهض اليهم عمرو ، فتضاربنا طويلا
فحطمناهم بالسيوف حطما ، ثم كانت لنا عليهم الدائرة فقتلناهم قتلا
ذريعا ، وأدرك الملك عمرو ، فاران بن يعقوب على تل فقتله . .
ثم مضى فى اثرهم الى بيت المقدس فأذعنوا له بالطاعة وأتوه بتاج
الملك فأخذه . وكانت فيهم امرأة جميلة يقال لها برة بنت شمعون
لم يكن مثلها فى وقتها من سبط يوسف بن يعقوب ، فأرسلوها اليه
تكلمه فى أمر نزل بها وقد لبست حلبيها وحللها ، فلما رآها عمرو
الملك فتن بها فتزوجها . وكان ذلك مكرأ منهم له ، فلما خلا بها
(قالت له) : الآن وقد رضيت فارضىنى ، (قال لها) : لك
رضاك . (قالت له) ارحل عن قومى ولا تضرهم فقد تشفعوا
اليك بى . (قال لها) لك ذلك . . ثم رفع عنهم . . فسار حتى
بلغ مكة ، وكان قد سار معه مائة رجل من اكابر بنى اسرائيل
رهينة بالولد والعيال ، على السمع والطاعة من قومهم . . ثم نزل
بموضع يقال له (اجياد) فعمدت برة بنت شمعون امراته الى
حسكة من حديد فسمتها ثم ألقتها فى فراشه عند منامه بالليل ،

وأعدت نجبا ورجالا بردونها الى بيت المقدس . . فلما التقى عمرو الملك نفسه في فراشه، شجته الحسكة ودخله السمفمات، وهربت، وهرب معها المائة الرجل الرهائن .

قال الجرهمى : فأخذت فرسان جرهم وعملاق وبلغت تل فاران أنتظرهم . فلما أتوا أخذتهم، وأخذتها ، ورجعت بهم وبها الى مكة . . فأصبت عمرو وقد تناثرت مفاصله من السم فحفرت له ضريحا وواريته ، ثم أمرت بالمائة الرجل فقدموا الى السيف ، ثم أخذت برة الى السيف فقالت : خدعت في مجلس الملك ، ودخل اليه نقيب بنى اسرائيل ففعل ما رأيت ولا أعلم بذلك ، وكيف افعل ذلك وأنا مثقلة منه . . فأمرت القوابل فأصابوا الحمل بينا، وكان عمرو قد منع الولد غير بنتين . . فلما عرفت أنها تحمل منه ، غلبت على الشفقة ، فأدخلتها داخل القصر وجعلت عليها حرسا حتى وضعت حملها . فأتت بفلام سمته مضاضا على اسم أبى وجدده . فشعب فلم يكن في وقته أجمل منه وجها . ودبرت أمرى في قتل بره ، فقلت أقتلها لا آمن على نفسى ولدها ، ولكن أترك أمر أمه في أبيه اليه .

ومضاض الصغير هذا الذى قتلت أمه أباه ، هو صاحب قصتنا التى حكيت لك .

قال الجرهمى : ثم وليت الملك بمكة وتوجت ، ورجعت الى بنى اسرائيل والروم وأهل الشام فخرجت اليهم فى مائة ألف من جرهم ومائة ألف من عملاق ، فقاتلتهم فهزمتهم وكانوا زحفوا

الى تابوت داود الذى فيه السكينة والذبور . . فألقوه فأخذته
جرهم وعملاق ودفنوه فى مزبلة من مزابل مدينة مكة فنهيتهم عن
ذلك فعصونى ، ونهاهم عن ذلك هميسع بن نبت بن اسماعيل
ابن ابراهيم صلى الله عليه وسلم فعصوه ، فعمدت الى التابوت
ليلا فأخرجته وجعلت لهم مكانه تابوتا ودفنته الى هميسع .

ويمضى كتاب التيجان فى هذه الأسطورة الغريبة فيقول :
وكان التابوت عند هميسع وكان عنده يتوارثونه وارث عن
وارث الى زمان عيسى بن مريم عليه السلام ، فانه اخذه من كعب
ابن لؤى بن غالب . . فلما هلكت جرم وعملاق غما ، وفنوا جميعا
ولم يبق من عملاق الا عشرون رجلا فكانوا مؤمنين على دعوة
اسماعيل مع هميسع ، وثمانية رجال من جرهم مع الحارث بن
مضاض الجرهمى . فلما رأى الحارث قومه هلكوا ، ترك ابنه
عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى عند الهميسع وخرج هاربا
يجول فى الأرض هما وغما ووحشة لما نزل بقومه . . وتغرب
الحارث بن مضاض ثلاث مئة عام .

* * *

حكاية الحارث الجرهمى التى حكيتها لها أهمية كبيرة فى
تاريخ القصة العربية . . فالحدث الذى تغرب ثلاثمائة عام انما
يرمز فى وضوح الى عجز الانسان وقصوره امام قوة القدر
الفائبة القاهرة ، بل لعله يرمز الى ذلك الضياع المخيف الذى
يستشعره الانسان امام سطوة القوى التى تحطم صراعه وتنتهى

محاولاته للتغلب على طبيعته البشرية من أجل الكمال .. وهى
في ذات الوقت تعليل اسطورى لفناء جرهم وعملاق ، تعليل يبرز
العقاب الذى لا يرحم ، العقاب الرهيب القاسى الذى لا يبقى الا
يذر ، فهى لعنة أصابت هؤلاء القوم فأئنتهم . لعنة مجهولة
المصدر اسمها الفناء ، وأمام هذه القوة المدمرة يخرج الحارث
الملك الجرهمى الذى قاد معركة قومه الظافرة ضد بنى اسرائيل،
والذى حمى بسيفه وسيف أخيه وسيوف قومه كرامة الكعبة
وهيبتها ، يخرج الحارث مهزوما عاجزا بلا أمل ، يدور فى الجزيرة
العربية يحمل فى قلبه المرارة والهزيمة واليأس ، ينتظر نهايته
التي تتأخر مائتين من الأعوام ، تظل فيها روحه تحمل آلام أمة
وعذاب شعب ، وترمز الى اللعنة التي تصم قومه .. وحين
يريد القدر أن يريحه من هذا العذاب المقيم يقصد الى مكة حيث
يدخل قبره بقدميه لينام أخيرا فى راحة ، وقد أدى فرض العقاب
المجهول خير أداء ..

وقصة الضياع هذه نرى صوراً منها فى الآداب العالمية
كقصة اليهودى التائه وقصة الهولاندى الطائر وغيرها ، بل
اننا لنرى منها صوراً فى الرواية العربية نفسها .. وهى فى
الرواية العربية تأتى بأكثر من دلالة .. فسليمان النبى الذى دان
له الانس والجن والطيور والوحش تخرج له الخيل الخضراء من البحر
فتعجبه ويفتن بها ويظل يتأملها ويربت على أعناقها وسوقها حتى
تنسيه التسبيح والتهليل ، فلما ذكر الصلاة والتسبيح أمر بالخيل
الخضراء فقمرت ، ثم سارت به الريح حتى بلغ تدمر ، وكان لخاتمه

نور يقوم بين السماء والأرض فيزدحم عليه الطير في الهواء على رأس سليمان . ثم ان خاتم سليمان سقط من يده فذهبت الطير وسكنت الريح ، لما اراد الله ان يرى سليمان ومن معه من المؤمنين ان الدنيا وما فيها الى زوال ، ثم سلب الله سليمان ملكه ليبتليه ، فلما سلب ملكه علم انه لما نسي من ذكر الله ، فخرج هاربا يجرول في الفيافي ويتضرع الى الله . .

فقصة سليمان هنا تدور حول الضياع أيضا ولكنها تحمل في طياتها دلالة الابتلاء ، فهي تشير الى قدرة الله التي ليست فوقها قدرة ، وعظمته التي لا تعلوها عظمة ، فسليمان رغم كل ما سخر له من مخلوقات انديا لا يستطيع لنفسه نفعا ولا ضرا . . والقصة التي نقلتها لك من كتاب التيجان تشير الى ان شيطانا ساحرا قد احتل مكان سليمان وخدع وزيره وأهل بيته، وظل يحكم مكانه الى ان رد الله الى سليمان ملكه، فقتل الشيطان الساحر وعاد الى مكانه . . فهي اذن تجسيد قصصى لقدرة الله على المنح والعطاء ، ثم على الاخذ والحرمان ، ثم على اعادة ما اخذ وقتما يشاء . . وهي ابتلاء للاختبار ، اختبار قوة ايمان سليمان ، واختبار اثر هذه النعمة الكبرى التي منحه الله اياها ، وهل أنسته ايمانه والتهته عن عبادة ربه . ؟ ولكنها ما تزال رغم هذا كله ، ورغم المضمون الدينى الذى تحمله ، ما تزال ترمز الى مأساة الانسان العاجز القاصر امام قوى اكبر منه وأكثر خطورة . .

الا مأساة سليمان لا تكتمل ، فسرعان ما تعيد اليه القدرة ما سلبت . فهي اذن محنة مؤقتة ، وهى بالتالى لا تحمل ما فى قصة الحارث الجرهيمى من معنى الضياع والعجز الكامل ، الا بمقدار ما تثبت قضية معينة . اما فى قصة الحارث فليست هناك مثل هذه القضية التى تحتاج الى اثبات ، انما هى فى حد ذاتها قضية كاملة .. قضية الانسان امام القدر ..

وشبيه بقصة الحارث هذه قصة قيس بن زهير ، او قيس الراى فى رواية عنتره بن شداد التى تاتى بعد هذه القصة بأكثر من قرن .. اذ نرى قيسا وقد أحاط العرب به ، وبقبيلته من بنى عبيس ، تريد العرب ان تأخذ بثاراتها من بنى عبيس على ما فعل بهم عنتره قبل موته . وقيس وقبيلته يذودون عن أنفسهم الى ان يفنوا . فيهرب قيس ومعه نفر قليل كل الى جهة ، اما قيس فيظل تائها فى الجزيرة اعواما طويلا ، الى ان يعود لبنى عبيس عزهم بقوة اولاد عنتره . وحين يحاول قيس العودة الى قبيلته يموت مجهولا فى الصحراء على ابدى بعض قبائل العرب .. فهي اذن قصة تحمل فى طياتها أيضا معنى الضياع ، ولكنه ليس ضياعا امام سطوة قوة مجهولة غير ملموسة ، وانما هو ضياع ولدته الهزيمة امام قوى بشرية معروفة . وتم بعد معركة طاحنة أبلى فيها قيس بن زهير ما وسعه الصمود ، ثم هرب بحياته ليظل هاربا حذر الموت ، وحذر الثارات التى تتعقبه . فهي اذن ليست لعنة مجهولة المصدر ، مجهولة السلاح ، ولكنها لعنة معروفة الأسباب ، واضحة فى سلاحها ونتائجها ، ولو أنها آخر الأمر تتشابه فى دلالتها مع

قصّة الحارث الجرهمي من حيث تصوير الضياع اليائس العاجز .. ونستطيع أن نرد ما بينهما في فروق الى اختلاف عصر وجود كل قصة منها .. فقصة عنتره كما نعرف من القصص العربي المتأخر زمتنا ، والذي كتب بعد أن ضرب العرب في الحياة من حولهم بأكثر من سهم .. فكان من الطبيعي أن يبحث القاص عن العلل ، وأن يجسد الأسباب ، وأن يمتطق الأحداث ويقربها الى الألف والواقع ما أمكنه .. أما قصة الحارث فهي قديمة قدم ما عرف العرب في صدر الاسلام من أساطير ، فلا عجب أن انبعثت فيها القوى الغيبية بلا تجسيد ولا تبرير ..

وقصة الضياع في حياة العربي ليست ظاهرة غريبة ولا شاذة ، فحياة العربي القاسية امام قوى الطبيعة المجهولة كفيلة بأن تجسد له ضعفه وتفاهته وحقارة قوته ، أمام جبروت هذه القوى التي لا تقاوم .. والعربي الوحيد وسط رمال الصحراء يتلمس طريقه بما يعرف من معالم قد تشوهها يد الأحداث ، فيفقد طريقه ليغدو شيئاً صغيراً وسط الخضم الزاخر حوله من قوى الطبيعة ، لا شك أقدر الناس على الاحساس بهذا المعنى من غيره .. بل ان العربي الأمن حول نبع ماء يشرب منه ويسقى غنماته في صراع مرليحيا وتحيا غنماته ، سرعان ما تقفاه قوى الطبيعة باختفاء هذا الماء وانتهائه ، ويشد رحله في يأس بحثاً عن ماء جديد لينتقر حوله من جديد .. وما أحسب إلا أن رحلته الدائمة هذه بحثاً عن الكلاء والمرعى نوع من الضياع في جوف الصحراء الضخم الذي يبتلعه ويبتلع معه ما له من آمال وأمانى ..

وتقلبات القدر في حياة العربي كثيرة ومتعددة . . فهو معرض للغزو يحيل الأحرار من أهله عبيدا ، والمحصنات من نسائه اماء . . ثم هو معرض للجفاف يحيل غناه فقرا ، وراحته وأمنه قلقتا واضطرابا . . وهو معرض للحيوان المفترس في كل خطوة يخطوها ، بل هو معرض للطبيعة المفترسة في كل خطوة أيضا . . واختفاء المدن والحضارات ، واختفاء القبائل وانقراضها شيء كثير الورد في أساطير العرب ، فقد باد عادوئمود ، وباد طسيم وجديس ، وبادتارم ذات العماد . . وبادت أمم تلتهم كجرهم وعملاق . . والأسباب كلها مجهولة ، يقولها العربي في كلمتين ، عاديات الزمن . .

فالزمن أو القدر قوة مخيفة تلاحق العربي في كل حياته ، وهو دائما في صراع ضدها . . تارة يترضاها بعبادة مظاهرها وتقديم القرابين لها ، وتارة يخضع لها تماما ويلجأ الى سؤالها واستشارتها في حياته ، يحاول أن يتلمس مصيره من خلال أى مظهر من مظاهرها . فعرفت عنه الطيرة ، والتشاؤم والتناؤل ، والضرب بالقداح .

وكان من الطبيعي أن يأخذ موقف العربي من هذه القوى مظهر الاستسلام دائما ، فهو أبدا لا يجد من سطوتها فكاكا ، ولا يستطيع حتى في أحلامه وأساطيره أن يتمرد عليها أى لون من ألوان التمرد . انما هو يستطيع في أحلامه وأساطيره أن يجسد من هذه القوى الغيبية قوى أخرى خيرة تساعده في التغلب على

القوى التى تهدم حياته ، فظهر الجن المؤمن والجن الكافر .. كما يستطيع فى احلامه واساطيره ان يزعم لنفسه نوعا من القدرة على توجيه هذه القوى نوعا من التوجيه بقوى غيبية اخرى مجهولة ، فظهرت فى اساطيره حكايات السحر والسحرة ، والحكمة والحكماء ، والطلاسم والارصاد .. ثم ماذا بعد هذا كله . ؟ لا شئ .. مازال يدور فى دائرة لا فكك منها ، اسم هذه الدائرة الاستسلام الصاغر بلا جدوى مهمل حاول او تمرد ..

من هنا كان من الطبيعى ان تحتل قصة الضياع امام القوى الخارقة وارادتها ، وخضوعه لها ، مكانا هاما فى الاساطير العربية . ولعل اكثر هذه الاساطير تجسيدا لهذه الفكرة وابانة عنها هى اسطورة الحارث الجرهمى التائه فى الجزيرة هذه الفترة الطويلة من الأعوام .. فان ضياع الحارث مرتبط ارتباطا كبيرا بضياع جرهم كلها .. والتعليل الاسطورى يكاد يحاول تفسير سر اختفاء جرهم وعملاق محاولا ان يتهمهم هم ، لا القدر . ثم محاولا ان يتملس اسبابا غير ظاهرة لمشكلة يلمحها هو ظاهرة امام عينيه . وكانت هذه الاسباب فى تعليقه الاسطورى هى الخطيئة التى احدث عليهم اللعنة .. فحين يتحارب مضاض الجرهمى مع بنى اسرائيل بسبب التاج الذى سرقه اسرائيلى من الكعبة ثم نقله الى بيت المقدس ، يحمل الاسرائيليون امامهم تابوتا به صحف (الزبور) .. وكانوا قد تعودوا ان يحملوا هذا التابوت امامهم فى كل معركة ، فتحمله الملائكة وتهزم اعداءهم .. الا انهم فى هذه المرة كانوا قد عصوا ربهم ونسوا كتابهم ،

وادخلوا على صحفهم ما شاعوا من كلام ، فلما حملوا تابوتهم امامهم لم يغنهم فتيلًا ، فانهزموا امام جرهم التي ادارت فيهم السيف . . واستولى الحارث الجرهمي على التابوت ، الا ان جرهم في نشوة نصرهم يلقون بالتابوت في مزبلة بمكة . . وتحل اللعنة ، ويحاول الحارث ان يقنع قومه ان يرفعوا التابوت ، ولكنهم يصرون ، ويتقدم الحارث ذات ليل الى مكان التابوت ، فيرفعه في خفية ويضع مكانه تابوتا مزيفا . . ولكن اللعنة كانت قد حلت وانتهى الامر . . وبدأت ابادة جرهم فلم يبق منهم الا القليل ، اما الحارث نفسه فيخرج هاربا الى صحراء الجزيرة ليتوه بين رمالها . . فكان المسألة هي محاولة ايجاد مبرر لما حل بجرهم ، وهو تبرير يلقي الضوء على عجز حقيقى امام لعنة القدر . . فرغم محاولات الحارث لابعاد التابوت فما زالت اللعنة قائمة ، ورغم ان بنى اسرائيل أنفسهم لم يحدث لهم سوى الهزيمة في معركة كانوا هم السبب في قيامها ، بل كانوا يستحقون بالفعل الهزيمة والعقاب لما حاولوا من التعدى على الكعبة وسرقة التاج الذى يعلق في رتاجها . . رغم كل هذا فاللعنة قائمة ولا شيء يبرر زوالها . وينطلق الانسان العاجز بلا اهل ولا ولد ، بلا ماضى باق ولا مستقبل مأمول ، ينطلق يجول ويجول ، عملاقا طويلا فسحما ضريرا ، ينتقل من مكان الى مكان يحكى حكايات جرهم ، وقصة عجزها امام القدر ، فيحكى حكاية (مضاض ومى) التى نقلتها اليك منذ حين ترسم بنهايتها اليائسة خطه النفسى الذى يعيش في حدوده ، اليأس المر . . والاحساس المطلق بالعجز والضياع . .

ولست أحب أن أترك قصة الحارث دون أن أشير الى ما جاء فيها عن أخيه عمرو بن مضاظ وزوجته الاسرائيلية ، وكيف قتلته مسموما بعد أن دسها قومها عليه ، وما في هذه القصة من شبه بمولد سيف بن ذى يزن في الرواية الطويلة التي ظهرت بعد ذلك بقرون . . كما أود أن أشير الى ما بين غربة الحارث بن مضاظ وبين غربة قيس بن زهير في قصة عنتره بن شداد . . لعل الباحثين يجدون في هذه القصة مصدرا لكثير مما جاء في القصص المتأخرة من اشارات لها دلالتها الأسطورية .

وهذه القصة المتداخلة المتشابكة انما تعطينا صورة واضحة عن فهم العرب للقصة وما يجب أن تحمل من مدلول ، وهى الى جوار هذا تفسر لنا حسم الدرامى الناضج وتبلور موقفهم من الحياة والقدر . . الا أن هذه القصة تأخذ مكانها في الجزء الشمالى من الجزيرة ، كما تتناول أبطالها من أهل الشمال سكان مكة وما جاورها . وهؤلاء كما تعلم ليس لهم تاريخ موغل في القدم يمددهم بالكثير من المنابع الأسطورية ، وأحب أن أنتقل معك الى الجنوب ، الى اليمن ، حيث عاشت حضارة زاهرة أكسبت أهلها من التجارب ومن الخبرات ما يسرت لهم تاريخا كبيرا ضخما لعبت فيه الحكاية ما شاء لها خيال كاتبها في انطلاق ويسر . . فالمادة متوافرة والأحداث كثيرة ، وأنا أريد في هذه الجولة أيضا ان نكشف معا السمات العامة التى اختارها أصحاب هذه المرحلة التى نتحدث عنها ، أعنى مرحلة التجميع . .

* * *